الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
دار الرسالة بشارع المبدولي رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

العدد ٥٠ — ٢٦ ذو الحجة سنة ١٣٥٧ — ١٥ فبراير سنة ١٩٣٩ — السنة الثالثة

فهرس العدد

صفحة			
١١٤	صلاة الفجر	أقصوصة عراقية	بقلم الأستاذ على الطنطاوى ...
١١٩	بين الحفل والمدرسة	أقصوصة مصرية	بقلم الأستاذ دريني خشبة ...
١٣١	شجاعة امرأة	للكاتب ل . غارمان	بقلم الأديب ناجي الطنطاوى ...
١٣٧	الابن	للكاتب الفرنسي بول بورجيه ...	بقلم الأديب كمال الحريري ...
١٤٣	مجنون زاهد	أقصوصة مصرية	بقلم الآنسة جميلة العلايلي ...
١٤٩	يونس	أقصوصة مصرية	بقلم الأديب عبد الحليم العشيري
١٥٥	حاجي بابا أصفهاني	للكاتب الانجليزي « جيمز موير »	بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

صلاة الفجر

أقصوصة عراقية

بقلم الأستاذ علي الطنطاوي

... أفاق في الساعة التي ألف، فضرب ببصره إلى الجدار حيث الساعة الكبيرة، ليرى كم بقي من الليل، فلم يجد على الجدار ساعة، وإنما وجد صورة لامرأة عارية، تبدو له على ضوء المصباح الكليل كابية مظلمة عليها من الوحشة والقبح ستار، فعاف النظر إليها، وأجال عينيه في أرجاء الغرفة، فاذا هو منكر لها، لا يعرفها ولا عهد له بها، وإذا هو يرى إلى جانبه على السرير امرأة عارية مفتوحة الفم تغط غطيطاً منكراً، وقد سالت الأصبغة على وجهها واختلطت، فتعوذ بالله من هذا الحلم وألقى برأسه على الوسادة، يفكر تفكيراً مبهماً مختلطاً، فما لبث أن عاد إلى المنام فرأى نفسه ملكا من ملوك الأساطير، مضطجعاً على سريره المرصع بالذهب، المحلى بالياقوت والمرجان، والوصائف قائمات على رأسه، عاريات السوق، باديات النحور والصدور، ينثرن عليه الورد، ويضمخن مفرقه بالمسك والعنبر، وأمامه المغنون والمغنيات، وإلى جانبه فتاة جمع الله فيها ما تفرق من سمات الجمال، فلم يتمالك أن أهوى على فمها بقبلة ...

... فأحس بها تدفعه عنها، فنظر فاذا هو مستيقن أن ما يراه حقيقة ثابتة، وأن حلمه الجميل قد احتواه هذا الواقع القبيح، وذكر ما كان بينه وبين هذه البغي التي قدمت إليه فراشها، وأحاطته بذراعيها، فأحس بالاشمئزاز، وذل في عين نفسه وتضاءل .. ماذا فعلت بنفسي؟ أهذه هي مبادئي وأخلاق؟ وبعد فماذا أصنع الآن؟

وهم بايقاظ إيمانه واللجوء إلى ربه، ولكنه لم يستطع فقد ألقت المعصية حجاباً على قلبه، ورانت الخطيئة عليه، فأحس بالألم يقطع في فؤاده، فقام إلى ثيابه يرتديها على عجل ليخرج من هذه الدار القذرة التي أضاع فيها عفافه، وخسر طمأنينة نفسه.

وفكر في الناس، ألا يرونه؟ ثم رأى أن لابد له من الخروج من هذه الدار التي يحس أنه فيها كمن ألقى في بركة قذرة ليموت فيها غرقاً ...

وألقى على المرأة نظرة أودعها كل ما في نفسه من كراهية واحتقار وبصق مشمئزاً وخرج هارباً.

ولكن كيف له بالهرب من نفسه، والفرار من ضميره الذي يذيقه من التقريع والازدراء ما ليس لمخلوق يحمل مثله طاقة؟ وكان شارع الرشيد خالياً مقفراً إلا من أعقاب السابلة، من كل بائس أوداعر لأنه لا يبقى يقظاً في مثل هذه الساعة إلا البؤس والرذيلة. وكانت ليلة مجنونة ذات رياح تعوي في هذا الليل مثل عواء الذئاب الجائعة يخالطه أصوات آلاف من النوم تنعب معاً، فتملأ أصواتها الفؤاد السليم ذعراً، فكيف بمثل فؤاد رجب أفندي المروع الكليم ... وكانت الأمطار تسكن لحظة ثم تعود فتهطل، تنصب انصباباً كأنما هي تريد إفراغ السحاب

في دقيقة واحدة . والريح تضرب حباتها فتصرفها ذات اليمين وذات الشمال ، والبروق تسطع خلال ذلك تخطف الأبصار ، والرعد يدوى فتحس أن قد تقلقلت بساكنيها الأرض .

وضرب رجب أفندى بيده إلى جيبه فألفاه فارغاً وذكر أنه دفع مرتبه كله الذى قبضه أمس لهذه البنى ... فعظم عليه الأمر ، وبلغ من سخطه على نفسه أن ود لو عض يده بأسنانه ، أو قطع شعره بيده ، واستفظع ما أتى وفكر فى أهله الذين لم يغب عنهم من قبل ، ولم يبت ليلة إلا معهم ، فكر فى أمه التى يعلم أنها لا يغمض لها جفن ما دام نائياً عن الدار ، وأبيه الشيخ المسكين الذى لا يفكر إلا فيه ، ولا يعنى إلا بسعادته . ماذا يقول لهم ؟ ومن أين يعوض عليهم مرتبه الشهرى الذى ينتظرونه ساعة بعد ساعة ، ليشتروا به الخبز ... أيقول لهم إنه وضعه كله فى يد مومس ثمناً لليلة إثم وعار ؟

لا . الموت أهون من ذلك ! وفكر فى الموت فعلا : ماذا علىّ إذا ألقيت بنفسى فى دجلة فسترت فيها إثمى ... ولكن هذا الخاطر امحى من رأسه على عجل ، لأن رجب أفندى كان متديناً يعلم أن المسلم لا يعمد أبداً إلى هذا الانهزام الشائن من غمرة الحياة وباب الفضيلة مفتوح أبداً ، والتوبة تغسل النفوس مهما تراكمت عليها أوضار الآثام ... وهم بأن يستغفر الله ويدعوه ، ولكن الحياء من الله عقد لسانه ، أن يتوجه إليه ويسأله وهو غارق فى حمأة الرذيلة إلى أذنيه ونسى أن الدعاء يكون أدنى إلى القبول كلما كان العبد أقرب إلى الاضطرار ، وأن الندم على ما مضى والعزم على الاقلاع عن الذنب فيما يأتي ، مع تركه والانصراف عنه دواء يشفى أكبر المذنبين من أشد الذنوب والله كريم غفار ، لو جاءه العبد بقراب الأرض خطايا وجاء معها بالتوبة الصادقة بشروطها الثلاثة لجاءه الله بقرابها مغفرة ، والله غفور رحيم ...

* * *

وكان رجب افندى فى الخامسة والعشرين ، فى السن التى تركب المرء فيها شياطين الشهوة ، وتزين له السبيل إليها ، فلا ينفعه إذا خطا الخطوة الأولى عقل ولا تفكير ، ولا يقف إلا فى آخر الطريق كالصخرة على شفر الوادى مابقيت مكانها فهى ثابتة مستقرة ، فاذا زحزحتها وقلبتها قلبة واحدة هبطت إلى أعماق الوادى ... وكان رجب افندى قد نشأ متديناً ، وكان شيخاً بعمة وجبة يطلب العلم على المشايخ لم يدخل مدرسة نظامية ولم يختلط بشباب العصر ، فكانت العمة عصمة له من البلاء ، وسداً يحول بينه وبين (الأوتيلات) والمراقص والحانات ، وكانت نفسه كهذه العمة التى على رأسه صفاء وطهراً وبياضاً ولكنه اضطر منذ أعوام إلى العمل فى ديوان من دواوين الحكومة فنزع العمة مكرهاً ، وودعها آسفاً ودخل اللجة وهو جاهل بالسباحة ، ليس له بطبيعة الماء خبرة ، ولا بمسير الموج علم ، فحملته موجة فألقته بحيث ترى ... ولو أنه عرف طرق الشر لما سلكها ، ولو كان متزوجاً لما هوى ، ولو أحسن اختيار أصحابه لما انساق هذا المساق ، ولكنه كان جاهلاً بما وراء الدار والمدرسة والسوق ، يستوى عنده فى عالم الرذيلة جلوس فى قهوة ، أو شهود رواية فى سينما ، ومعاقرة الخمرة فى الحانة ، ومجالسة البغى فى الماخور . وكان غريباً ، ونفس الغريب مهما اتقى وصلح كصندوق الديناميت لا يؤمن انفجاره إذا داناه لهب أو مسته نار ، ونفس الغريب

يلهبها كل ما فى السوق من متبرجات سافرات ، وما على الشاطئ من عارين وعاريات ، وما فى السينما والقصص من أخبار الداعرين والداعرات ... فأيان تأمن انفجار الديناميت ؟ . ثم جاءت طامة الطامات فالتف حول رجب افندى نفر من زملائه تطوعوا لاغوائه احتساباً لوجه إبليس ، فوجدوه شديداً عنيفاً ورأوه قد ثار الثورة الكبرى لما أرادوه على دخول القهوة ، فعلموا أنه قد صف قوى نفسه كلها فى هذه المعركة الصغيرة ، ولم يبق لما وراءها شيئاً ، وأيقنوا أنهم لو غلبوه هذه المرة غدا منقاداً لهم طيعاً . فما زالوا به يراوغونه ويحتالون عليه ، ويسألون من يثق بهم على مسمع منه : هل فى دخول القهوة ما يمس الدين أو العرض ، أفتونا يا مسلمون ؟ . فيقولون : لا ... وإنما هي مضيعة للوقت ، مفسدة للصحة ، وإنها عادة مؤذية ، ولكنها لا تنافى الدين ، ولا تعد فى المكفرات ... وما زالوا به حتى دخل القهوة ، فجلس مستحيياً يتصبب منه العرق ، ويظن أن كل ما فى الأرض عيون تنظر إليه ... ثم لم يطق البقاء فخرج ، ولكن رجله علقت فى الفخ ... واعتاد القهوات ، وسار إلى السينمات ، وما فى ذلك كله بأس ، ولكن رجب افندى اعتقد أنه هوى وزل مذ دخل القهوة ، وأن السد بينه وبين الرذائل كلها قد انهار ، فلم يقف فى طريقه شيء ، وعرف ذلك أصحابه من عباد إبليس المخلصين ، فأتموا لعبتهم على ذقنه ، ليستكملوا سرورهم بكمال هذه الرواية ، فأخذوه إلى دار من تلك الدور التى تسمى (أوتيلات) أو (بانسيونات) ولكن جدرانها تنضم على ماخور من شر المواخير ، ومعبد من معابد إبليس ، وأغروا به الفتاة ، وأوهموه أنها تحبه وتموت عشقاً له ؛ وكان المسكين قد قرأ دواوين الشعر الغزل ، وروايات الحب المذرى كلها ، فظن أنه قد غدا قيساً جديداً ، أو روميو آخر ...

* * *

وكان رجب أفندى يعرض فى نفسه هذه القصة وهو يمشى متسللا فى ظلال الجدران ، فى هذه الليلة العاصفة الماطرة ... ويذكر كيف عاد إليها بعد ذلك فسمع حديث شقائها ... وبكى لبكائها ، كما كان يفعل المحبون الذين قرأ أخبارهم فى الأشعار والروايات وصب بين يديها ما كان فى جيبه من مال .. وكيف ندم وتنبه إيمانه فى نفسه . فعزم على ألا يراها من بعد ، فأبطل رفاقه عزيمته وأفهموه أن الشاب العصرى لا يليق به أن يفعل ذلك فعاد مرة ثالثة ورابعة ، وهى دائماً فى أثواب الممثلة العاشقة الغريرة تهيج نفسه وتطمعه ولكنها لا تطعمه ، وتعرض عنه ولكنها لا تؤيسه ، فهو يتبعها أبداً راغباً فيها ، ولكنه لا يصل إلى شيء

واستيقظ إيمانه كرة أخرى ، فأزمع أن يتركها أبداً ، وذهب إلى مكتبه بعزيمة جديدة ، وراحة بال وأدى عمله بنشاط ظاهر ، ومرت على ذلك أيام حسب فيها أن كل شيء قد انتهى ، وأن هذه السحابة قد انقشعت من سماء حياته ، ولكن البريد حمل إليه كتاباً منها فقرأه وغضب ومزقه باضطراب عصبي ظاهر . وخرج يمشى إلى داره ، فأحس أن نفسه تنازعه الذهاب إليها ، فأعرض ومضى قدماً فاشتدت رغبته فى زيارتها فزعم لنفسه أنه ذاهب لتأنيبها وإعلان القطيعة بينه وبينها ... ودخل عليها مقطباً وردعلى تحيتها باعراض ، فسألته : مالك أيها الحبيب؟ فقال : لا شيء ! لست بحبيب أحد من فضلك

وشعر بالارتياح ، وسره أنه استطاع أن يخاطبها بمثل هـذه اللهجة ، وتوقع أن تجيبه بجفاء فيغضب ويصارحها بالقطيعة . ولكنها ظلت صامتة ، وظل هو مطرقاً ينظر جواب ما قال .. فطال عليه الأمر فرفع بصره ليرى ما تصنع ، فالتقت نظراتهما وخيل إليه أنه رأى فى عينيها معنى الألم والعتب والاخلاص يلوح له من خلال جفونها الناعسة ، وأهدابها الطويلة فتضعضع ولان وخفق قلبه بشدة وأحس بالرغبة الملحة فى الاقتراب منها وعناقها ، ونهض ليدنو منها ولكنه لم يجرؤ على ذلك فلبث قائماً . قالت : مالك ؟ فلم يجب ، فمدت إليه يدها لتجلسه ، فلما أحس بأصابعها بين أصابعه اهتز جسمه كله ، وانتفض على نحو مايصف الشعراء والقصصيون . . . وجلس إلى جانبها وألقى يده على كتفها كأنما كان ذلك عفواً ، فشعر بلذة وسره ما كان من جرأته فعكر فى أن يلف يده حول عنقها ولكنه خشى أن تغضب .. وأن ترى فى ذلك تعدياً على عفافها ، وذكر أن ماجدولين غضبت لما قبلها ستيفن لأن هذه القبلة قد أفسدت الهوى العذرى .. الذى كان بينهما ، ثم اشتدت رغبته فى تطويقها بذراعه ، فتردد حيناً ثم لف ذراعه حول عنقها ، وأتم ما كان يفكر فيه فأسند رأسه إلى كتفها كما شاهد الممثلين فى السينما يفعلون ، فلم يبد عليها شيء من الغضب فأوغل فى الجراءة فأخذ يدها بيده الأخرى ورفعها إلى فمه فمس أناملها بشفتيه . . . ونظر ماذا تفعل ؟ فاذا هى قد ألقت رأسها فوق رأسه حتى لامست خصلات شعرها وجهه ، فالتهبت النار فى أعصابه وهم بها فوثبت كالقطة .. وجعلت تشكو إليه ما عليها من الدين ، فدفع إليها كل ما فى جيبه .. فلما احتوت المال بيدها تخلصت منه فلم يدر كيف خرج إلى الشارع ...

وذكر كيف أزمع الاتصال بها مرة واحدة ، أو الاعراض عنها مرة واحدة واطراحها ونسيانها وأنى له ذلك وهى لاتدع إلى إغرائه طريقاً إلا سلكته ، إنه يراها كالأفعى المبرقشة ، ويتصورها أحياناً حشرة قذرة ولكنه يود مع ذلك لو قبض عليها فعصرها إليه وعصرها وأكلها أكلا ...

وذكر كيف كان الندم يغمر نفسه ، فيأوي إلى غرفته يشتغل بالمطالعة ، ويقبل على كتب الرقائق ويخرج إلى المقابر والمستشفيات ، يتعظ برؤية المرضى والتفكير فى الأموات ، حتى إذا أحس البرء قليلا جاء رفاق السوء بالمرض المعضال . . . وذكر كيف كان ينفق فى كأس من الويسكى أو الشمبانيا مايكفى أسرته أسبوعاً كاملا ، كل ذلك من أجل هذه الفتاة التى اتصل بها أخيراً ، فتكشفت له عن حشرة حقيقية ، يبصق عند رؤيتها اشمئزازاً ...

* * *

وكان يفكر وهو يسير مسرعاً ، يريد أن يفر من الناس حتى لا يراه أحد ، فلم يع على نفسه إلا وهو فى ضاحية (الأعظمية) ...

قال لى وهو يحدثنى حديثه :

... فلما بلغتها سمعت المؤذن يمجد الله ويذكره

ذكر السحر

ورأيت جارنا أبا صالح ، يمشى إلى المسجد وهو يقول : لا إله إلا الله ، يقتلعها من قرارة قلبه ، فتواريت منه كيلا يرانى ، وجعلت أذكر أيام كنت لا أعرف هذا السهر الذي جر على كل بلاء ، فكنت أنام عقب العشاء ، ثم أفيق فى السحر ، فأرافق أبا صالح إلى المسجد ... فرأيت بينى وبينه أمداً بعيداً وتمثلت لى خطاياى وآثامى كلها ، لأن صوت المؤذن

يلهبها كل ما فى السوق من متبرجات سافرات ، وما على الشاطئ من عارين وعاريات ، وما فى السينما والقصص من أخبار الداعرين والداعرات ... فأيان تأمن انفجار الديناميت ؟ . ثم جاءت طامة الطامات فالتف حول رجب افندى نفر من زملائه تطوعوا لاغوائه احتساباً لوجه إبليس ، فوجدوه شديداً عنيفاً ورأوه قد ثار الثورة الكبرى لما أرادوه على دخول القهوة ، فعلموا أنه قد صف قوى نفسه كلها فى هذه المعركة الصغيرة ، ولم يبق لما وراءها شيئاً ، وأيقنوا أنهم لو غلبوه هذه المرة غدا منقاداً لهم طيعاً . فما زالوا به يراوغونه ويحتالون عليه ، ويسألون من يثق بهم على مسمع منه : هل فى دخول القهوة ما يمس الدين أو العرض ، أفتونا يا مسلمون ؟ . فيقولون : لا ... وإنما هي مضيعة للوقت ، مفسدة للصحة ، وإنها عادة مؤذية ، ولكنها لا تنافى الدين ، ولا تمد فى المكفرات ... وما زالوا به حتى دخل القهوة ، فجلس مستحيياً يتصبب منه العرق ، ويظن أن كل ما فى الأرض عيون تنظر إليه ... ثم لم يطق البقاء فخرج ، ولكن رجله علقت فى الفخ ... واعتاد القهوات ، وسار إلى السينمات ، وما فى ذلك كله بأس ، ولكن رجب افندى اعتقد أنه هوى وزل مذ دخل القهوة ، وأن السد بينه وبين الرذائل كلها قد انهار ، فلم يقف فى طريقه شيء ، وعرف ذلك أصحابه من عباد إبليس المخلصين ، فأتموا لعبتهم على ذقنه ، ليستكملوا سرورهم بكمال هذه الرواية ، فأخذوه إلى دار من تلك الدور التى تسمى (أوتيلات) أو (بانسيونات) ولكن جدرانها تنضم على ماخور من شر المواخير ، ومعبد من معابد إبليس ، وأغروا به الفتاة ، وأوهموه أنها تحبه وتموت عشقاً له ؛ وكان المسكين قد قرأ دواوين الشعر الغزل ، وروايات الحب المذرى كلها ، فظن أنه قد غدا قيساً جديداً ، أو روميو آخر ...

* * *

وكان رجب أفندى يمرض فى نفسه هذه القصة وهو يمشى متسللا فى ظلال الجدران ، فى هذه الليلة العاصفة الماطرة ... ويذكر كيف عاد إليها بعد ذلك فسمع حديث شقائها ... وبكى لبكائها ، كما كان يفعل المحبون الذين قرأ أخبارهم فى الأشعار والروايات وصب بين يديها ما كان فى جيبه من مال .. وكيف ندم وتنبه إيمانه فى نفسه . فعزم على ألا يراها من بعد ، فأبطل رفاقه عزيمته وأفهموه أن الشاب العصرى لا يليق به أن يفعل ذلك فعاد مرة ثالثة ورابعة ، وهى دائماً فى أثواب الممثلة العاشقة الغريرة تهيج نفسه وتطمعه ولكنها لا تطمعه ، وتعرض عنه ولكنها لا تؤيسه ، فهو يتبعها أبداً راغباً فيها ، ولكنه لا يصل إلى شيء

واستيقظ إيمانه كرة أخرى ، فأزمع أن يتركها أبداً ، وذهب إلى مكتبه بعزيمة جديدة ، وراحة بال وأدى عمله بنشاط ظاهر ، ومرت على ذلك أيام حسب فيها أن كل شيء قد انتهى ، وأن هذه السحابة قد انقشعت من سماء حياته ، ولكن البريد حمل إليه كتاباً منها فقرأه وغضب ومزقه باضطراب عصبى ظاهر . وخرج يمشى إلى داره ، فأحس أن نفسه تنازعه الذهاب إليها ، فأعرض ومضى قدماً فاشتدت رغبته فى زيارتها فزعم لنفسه أنه ذاهب لتأنيبها وإعلان القطيعة بينه وبينها ... ودخل عليها مقطباً وردعلى تحيتها باعراض ، فسألته : مالك أيها الحبيب؟ فقال : لا شيء ! لست بحبيب أحد من فضلك

وجلال السحر قد نبها فى نفسى الذخيرة الدينية ، فأدركت قيمة الاستقامة ، ولذة العفاف ، وعلمت أن هذه السعادة التى يحس بها المؤمن لا تعدلها لذائذ الجسم ، ومتع الحب ولا توازيها ... وأدركت أن الصلة بالمرأة سراب خادع تراه من بعيد ، وتسمع وصف زلاله الصافى ، وماءه النمير ، فيهيجك الشوق إليه ، ولكنك إذا جئته لم تجده شيئاً ... جرب هذه الصلة مرة تحس بهوانها وسخفها ... لا ... لا تجربها ، فان من جرب المجرب حلت به الندامة ولا تقاصر بدينك وشرفك لتعلم هذه الحقيقة بل ثق بما أقول لك . ولا تثر هذه النار فى نفسك فانك لا تستطيع أن تطفئها . إنه لا يطفئها إلا أن تستمتع بكل جميل فى الكون ، وهيهات . إنك إذا استطعته لا تقوم صحتك به ، ولا تدوم لك وأنت تنفق منها بلا وعى ولا حساب

لما أحسست بذلك أسرعت إلى الحمام فتطهرت ، وخرجت أؤم المسجد تائباً ، وأحلف لك أنى لم أجاوز بابه حتى وجدت مثل ارتياح الغريق إذا خرج إلى الهواء ، أو المختنق إذا فتح له مجرى النفس ، وشعرت أنى أسمو وأرتفع ، وأن هذه الأغلال التى كانت تقيد روحى قد تحطمت وانكسرت ، وأن عبء الخطايا قد نزل عن كتفى ، ولما وقفت فى الصف وقلت : الله أكبر خرجت من دنياى

وقرأ الامام : « ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ، لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً » فجاء ذلك برداً على كبدى وسلاماً ، فصححت التوبة ، ورأيت أن أصل البلاء من رفاق السوء فهجرتهم جميعاً ، وقطعت حبل ودهم ، وتركت سمر الليل ، فأعاد الله إلى ما كان سلبنيه من الأنس وسعادة الروح بالتوجه إليه . ومراقبته . . . وله الحمد على ذلك

الآن عرفت جمال الدنيا ، لا كما يقول أصحابك الأدباء ، من أن المرء لا يعرف جمال الدنيا إلا بالحب وأن المحب لا يرى الدنيا جميلة إلا إذا أضاءتها عينا من يحب — فاذا غابتا غاب جمالها — فأى كون هذا الذى تحتويه عينا امرأة قد تكون بغياً ؟

إننا نحتاج إلى مبشرين بالفضيلة ممن عرف الرذيلة وخبرها ، أما من دعا إلى الفضيلة لأنه لم يقدر عليها فهو شر من الشيطان ، لأنه إن قدر عليها انقلب داعراً خبيثاً فأضل معه من كان اهتدى بهديه ، والشيطان يدعو إلى الرذيلة على النور فلا يضل به إلا من أراد الضلالة ، وليست فضيلة العاجز إلا انتقاماً لنفسه من القادرين ، ولقد ترددت بين الحياتين : حياة يلذها الشبان ويأنسون بها وهى حياة الانطلاق من كل قيد ، والسعى وراء اللذة ، والاستجابة إلى داعى الهوى ، وحياة لا تعجب أكثر الشباب لأن لها غاية سامية ، ووراءها حياة آخرة ، وفوقها إله قادر يعلم صاحبها أنه إن فاته حظه من لذة عاجلة فانية ، نال من اللذة الآجلة الباقية ، فتأدبت بأدب القرآن فكفت أغض البصر ، وأنزه اللسان عن الفحش ، وأبتعد عن المغريات فنلت والحمد لله السعادة كلها !

قلت : أتأذن لى بنشر حديثك ؟

قال : نعم ، ولهذا حدثتك به ولكن دع الأسماء لا تصرح بها . وكذلك فعلت !

على الطنطاوى

لا يذوقون اللحم إلا مرة فى كل شهر ... ودقيق الذرة قد أوهنهم وأنهك قواهم ، وكلما رأيت الدم فى بولهم وبرازهم ذكرت العلة التى أودت بمحمود وقضت على كثيرين من أهل القرية

— أذكر الله يا شيخ ودع هذا التخريف

— لست أخرف يا رقية ... لن يذهب توفيق إلى المدرسة بعد الآن ...

— وماذا يقول الناس ؟ نفضح أنفسنا بين أهل القرية ؟

— يقولون ما يشاءون ... ليس لأحد حساب عندنا !

— وماذا يصنع توفيق إن لم يذهب إلى المدرسة ؟

— ماذا يصنع ؟

— أجل ... ماذا يصنع ؟

— يساعدنى !

— يساعدك ؟ يكون فلاحا ؟

— ولماذا لا يكون فلاحا ؟

— هذا مستحيل !

— لن يكون إلا فلاحا ...

— نجوم السماء أقرب إليك مما تريد ... توفيق لن يمشي حافياً ... توفيق لن يخلع البذلة ليلبس البشت ... توفيق لن يلبس اللبدة مكان الطربوش ... توفيق لن يمسك المحراث بعد أن كان يمسك القلم

— اطمئنى ... فلن يمشي توفيق حافياً ولن يلبس البشت ولن يخلع الطربوش ... سيكون عروساً كما تشتهين ، لكنه سيكون فلاحاً مع ذلك !

— لن يكون فلاحاً ...

— بل سيكون فلاحاً كما كان أبوه وكما كان جده

— بل سيكون موظفاً نظيفاً يقبض المرتب أول كل شهر مثل ابن المعلم أبي عوف !

— ابن المعلم أبي عوف كان ولداً ذكياً وهذا حظه ، أما ابننا فهو أخيب الخياب يا رقية ... أما والله لا أريد له إلا الخير ... يساعدنى ... إنى رجل مريض ، ولا أضمن أن أعيش له ... إننى إذا مت اليوم فسينقطع عن المدرسة برغمه ، ولا يجد من يعلمه عملا ينفعه ... التعليم لأولاد الأغنياء والموسرين يا رقية ... يكفى الفقير أن يتعلم الكتابة والقراءة والحساب وما ينفعه فى صحته ودينه ...

— وهل كل الذين يذهبون إلى المدارس أغنياء ؟

— المجتهدون منهم يستحقون التعليم ... لكن الخيَّاب أمثال السيد توفيق ، ينبغى أن يتعلموا فى جهات أخرى

— وأى الجهات تقصد ؟

— ينخرطون فى أعمال آبائهم

— ومن علمك هذا ؟

— الحياة يارقية .. الحياة الصارمة التى حييتها فى ظل أبى

— زمن والدك قد مضى وانقضى ... نحن فى زمان جديد

— زمانكم الجديد هذا ، زمان مريض عليل ممتلئ بالغرور ... كله زخارف ... إنك لا تريدين أن يذهب توفيق إلى المدرسة إلا ليدخل عليك بالبذلة والطربوش ، وحتى لا يمشي حافياً ولا يلبس البشت ... وكي يكون يوماً من الأيام موظفاً مثل ابن أبي عوف ... يقبض المرتب أول كل شهر ، ويجوع آخر كل شهر ، وهو بالرغم من بذاءته وسماجته يعيش عمره ذليلاً فقيراً ، إذا طرد من عمله أصبح من المتبطلين الفارغين ، فهو يتسكع هنا ويتسكع هناك ، يحسد الناس ويحقد على الناس وينقم أول ما ينقم على من يحسن إليه .. هل نسيت عبد الخالق ابن الشيخ زناتى ؟ ...

— هذا حظه ...

— لا . . . لم يكن هذا حظه . . . بل الغلطة غلطة أبيه

— وكيف أخطأ أبوه ؟

— لقد كان الشيخ زناتي أمهر حداد فى القرية.. لقد كان يبيع كل يوم جمعة عشرين شرشرة وعشرين فأساً غير السكاكين والمقصات ، وقد استطاع أن يجمع ثروة عظيمة . . . سبعة أفدنة وثمانية عشر قيراطاً بارقية من أحسن أراضي قريتنا . . . خرطة الساحل كلها وأرض أبي طاقية .. أين ذهبت هذه الجنة ؟.. لقد بددها عبد الخالق . . .

— وما غلطة أبيه إذن ؟

— غلطته أنه لم يعلم ابنه صنعته

— لكنه علمه ما هو خير منها ؟

— وماذا علمه ؟

— لقد نال الشهادة والوظيفة

— وانسلخ من طهارة الريف وغرق فى زيف المدن . ولما استغنى عنه وعاد إلى القرية ، لم يستطع أن ينزل إلى أرضها لأن أجنحة الغرور كانت تذهب به بعيداً فى سماء غير سمائها ، فباع الأرض تفاريق وأنفق كما كان ينفق فى حياة الوظيفة حتى لم يبق فى يديه شيء . . . ولقد حاولت مرة أن أفتحه بفتح دكان أبيه فسخر منى وقال : إنه لا يدري من صنعة الحدادة كثيراً ولا قليلا . . . ولم أكن أقصد أن يعمل بيديه ، بل كنت أعنى أنه يستطيع استخدام أحد الصناع الساكنين من أهل البندر فيصنع له وهو يبيع ويدير العمل ، لكنه اتخذ حديثي هزواً واستكثر أن يخلع سترته وينغمس فى تراب الفحم ودخان الكير وأن يعود سمعه دقات الأزاريب والسندال بعد ما تعودت أنغام العود والقانون والكمان . . . قلت له : لكن الصنعة على قذارتها أشرف من البطالة ، فتبسم وقال : إنه لم ييأس أن يعود إلى الوظيفة ، وأخيراً استطاع أن يتزلف إلى أحد أعضاء بلدية منوف فعينه كنّاساً

— كناس ؟

— إى والله كناس يا رقية ! بمائة وعشرين قرشاً فى الشهر

— مبلغ لا بأس به ... إنه ثروة !

— لقد كان يشرب دخاناً بأكثر منه

— ومع هـذا لا أحسب أن الفلاح يكسب مائة وعشرين قرشاً مثلها فى الشهر

— الفلاح مخلوق قنوع يا رقية ، وهو إذا نجح فى زراعته وبارك له الله ربح أضعاف هذا المبلغ ... إن جاموسة واحدة يبارك الله له فيها تربحه ضعف هذا المبلغ

— ومع ذاك فلن يكون توفيق فلاحاً

— بل سيكون توفيق فلاحاً

— إذن أترك لك المنزل

— وإلى أين ؟

— إلى أبي

— وماذا تصنعين عند أبيك ؟

— ليس هذا شأنك

— إذا لم يكن شأني فيكون شأن من إذن ؟

— إذن يذهب توفيق إلى المدرسة ولا ينقطع عن التعليم

— لن يذهب إلى المدرسة ولن ينقطع عن التعليم

— وكيف لا ينقطع عن التعليم وهو لن يذهب إلى المدرسة !

— سيتعلم الفلاحة صنعة أبيه وصنعة جده

— هذا لن يكون

* * *

اختلف الزوجان اختلافاً شديداً ، وذهبت رقية تشكو زوجها إلى أبيها وإلى أخواتها وإخوتها وجميع

من تعرفهم ومن لا تعرفهم ، وراحت تتهمه بالجهل وضيق الفهم وانقباض الكف ... ولبثت فى منزل والدها أياماً طويلة وهى ترفض العودة إلى منزل الطاعة، كما يتقمر رجال المحاكم حين يسمون منزل الرجل المتزوج.. وكلما تردد الرجل على منزل أبيها يطلب أو بتها غلت فى طلباتها فاشترطت أن تشترى ثلاث بذلات لتوفيق ، وطربوشين لتوفيق ، وزوجين من الأحذية لتوفيق، أحدهما أصفر فاتح ، والآخر أسود (بأستك)

وجلس الفلاح المسكين الشيخ عبدالاله يحاور صهره النبي فيما ينبغى وما لا ينبغى من هذه المشكلات ... وكان الصهر كالفرس الحرون ، كلما أدلى عبد الاله بحجة ركب رأسه ، وأبى أن يصغى إليه ، وشرد بالحديث شروداً يكرب الصدر ويذهب بأناة الحليم ... قال لزوج ابنته وهو يكلمه بكل جارحة فى وجهه ، فتارة يغمض عيناً ، وتارة يقلص شفة ، وطوراً ينفر فاه ، وأطواراً ترتسم الأسارير مستهزئة حول عينيه وملء جبينه ، وهو فى ذلك كله يتصنع اللباقة والفهم ، وإن لم يكن عنده شىء من لباقة ولا فهم

— أنا عارف يا عبد الاله ... أنا عارفك ... أنا عارف ...

— أنا اليوم كما كنت بالأمس يا سيدى

— أبداً ... أبداً

— وماذا تغير من طبعى ؟

— كل شىء ...

— كل شىء مثل ماذا ؟

— الوعود الحلوة التى كنت تعدنا بها فى معاشرة رقية ذهبت كلها أدراج الرياح

— وأى هذه الوعود ذهب أدراج الرياح ياسيدى؟

— كثير ... كثير ...

— أريد أن أعرف ، هل شكت لك رقية من ضيق فى حياتها ؟

— شكت أمر الشكوى ...

— ومن أى شىء شكت ؟

— من كل شىء

— من كل شىء مثل ماذا ؟

— من الدار الخربة ومن الزير المكسور ومن بخلك ... ومن ...

— بخلى ؟

— أجل يا سيد عبد الإله ... إنك تضن بثمن شربة ملح على ابنك عبد الفتاح ...

— هذا هو الذى شكوت أنا منه ... إن كل قرش يقع فى أيدينا ندخره لمصروفات توفيق وبذل توفيق وطرابيش توفيق ... إننا نجوع ياعم الشيخ رزق لنفرح بدخلة توفيق علينا بالبدلة والطربوش والحذاء الأصفر الفاتح ... أولادي كلهم يتبولون دماً لأننى أعجز عن إرسالهم للطبيب وهذا لأن أخاهم يأكل أرزاقهم ... هم ينصبون ويكدون وكل نصيبهم وكدهم ذاهب عليه ... وهو مع هذا أخيب الخياب

— كلام فارغ ... تخريف ... هل دخلت فى علم الله يا شيخ ؟

— ليس ضرورياً أن أدخل فى علم الله لأعرف إن كان ولدى ينفع أولا ينفع ...

— يا طاغى ؟

— أستغفر الله أن أكون طاغياً ... لن ينجح توفيق فى المدرسة ، ولو نجح فسوف يكون نجاحاً يشبه الخيبة

— ولماذا ؟

— سيكون مثل ابن أبى عوف

— ومثل ابن أبى عوف ؟

— أسوأ حال وألعن مآل !
— ولماذا ؟
— لأنه يشتغل كناساً فى بلدية منوف
— كذاب !
— لست كذاباً
— هل رأيته ؟
— لم أره ، ولكني عرفت ؟
— لقد رأيته بعينى يجلس أمام مكتب فخم .
— هذا صحيح ؟
— إذن كيف تدعى أنه يشتغل كناساً ؟
— لقد رجوه فقط ، فهو معين كناساً ولأنه يحسن الكتابة أخذوه ليساعد الكتبة . . .
— وهل أنت مهندس الكون ياشيخ عبد الاله؟
— لا ... لست أنا مهندس الكون ، ولكنى مهندس أسرتى فقط .
— وأين تعلمت هذه الفلسفة وأنت رجل نافٍ وعراث ؟
— ليس ضروريا أن أتعلمها فى الازهر الذى لم ينفعك بيصلة !
— اخرس ياقليل الأدب !
— لست قليل الأدب ، ولكنى أقول الحق ..
— اخرس ياجاهل
— لست جاهلا فأنا أحسن الكتابة والقراءة ولله الحمد ، وقد استفدت من الفلاحة أضعاف ما استفدت أنت من الأزهر الذى قضيت فيه شبابك فما أفدت مما حصلت فيه شيئاً ، ولولا ما ترك لك أبوك . . .

وهكذا انقلب الحوار فصار حواراً أفلاطونيا عجيباً ... وهكذا تنقلب محاورات الغربيين .. وقد أخطأت رقية حين أثارت العاصفة فى منزل زوجها وحين جعلت أهلها قضاتها فيما كان ينبغى أن يكون من شأنها وشأن زوجها فقط .

لقد كان الشيخ عبد الاله رجلا حصيفا ينتفع أكثر من غيره من أهل القرية بعبر الزمان ، وهو إن أخطأ فملاقى إهاجة الشيخ زرق بتعبيره بتفاهة ما أفاد من الأزهر إلا أنه كان على شيء من الحق فيما أراد أن يقول وإن يكن قد التوى عليه القصد وفاته حسن التعبير . . . وأهل الزوجة حمق حين يدسون أنوفهم فيما لا ينبغى أن يشاركوا فيه أصهارهم مما يعنيهم وحدهم ولا يعنى أحداً سواهم ؛ وهم حين يشجعون بنتهم على معاندة زوجها ينقضون بأيديهم الأثيمة بنيان سعادتها وسعادة الأسرة التى كان يجب أن تشيدها وتقيم عمادها ... وهذه أولى وظائف الزوجة الصالحة ... لكنها وظيفة لا تتم إلا للمرأة الكتوم التى لا يستخفها النزق ولا يستهويها الطيش ، فتذيع من أسرار زوجها ما كان ينبغى أن يكون سر بينهما لأنه سياسة حياتهما

لقد عير الشيخ رزق صهره عبد الاله بأنه يجيع ابنته وهى تهمة مفتراة ما فى ذلك ريب ، وإن لم تكن مفتراة فان رقية هى التى قذفت بها فى سمع أبيها ... وقد افترتها فى غير وعى ولغير حكمة اللهم إلا لشهوة التشنيع على زوجها الذى ضاق ذرعاً بنفقات تعليم ولده ، أخيب الخياب ، كما يطلق هو دائماً عليه ، فهو يريد أن يقطعه عن المدرسة ليوفر لأولاده أكلة من اللحم كل أسبوع على الأقل بدل الأكلة الشهرية ، وليوفر لهم كذلك شيئاً من دقيق القمح وشيئاً من القماش يقيهم زمهرير البرد ، ثم لكيلا يضن على أحد منهم بثمن شربة من الملح أوزجاجة من القطرة ، ثم لكى يضمن لولده مستقبلا عمليا فلا ترهقه الحياة ولا تفجأه بمطالبها بغتة حين يرغم على حياة المزرعة إرغاماً لم يأخذ له أهبة ولا أعد له عدة . والزراعة فن وعرفان يصبحان

بعض الأيام غريزة فى ساعدى الفلاح فهما تضربان بالفأس وتثيران الحرث كما يغنى قلم الشاعر بأهازيج الهوى فوق القرطاس .

كانت هذه الهواجس تضطرب فى نفس عبدالاله وكان كلما فكر فى سلوك زوجته حزن وساوره الكمد ، لأنها شعبت آلامه ، وخلقت له من المشكلة الواحدة مشكلات ومشكلات . . . وقد نسى كل شئ إلا ما افترت عليه من أمر تجوبعها ، فكان يذكر ذلك ويبكى فى أعماقه دون أن يذرف دمعة واحدة وهو أحر البكاء وأوجعه

* * *

كان يقطن الشاب المراهق توفيق أفندي عبدالاله الطالب بالثانوية الكبرى ، فى منزل صغير قذر من منازل عطفة السلاح بحى المنشية

وكانت غرفته البسيطة الساذجة الرطبة مأوى لأسراب البعوض وجيوش البراغيث والبق . . . لكنها بالرغم من هذا البلاء كانت جنته التى يقضى فيها ليله وأكثر نهاره فى أيام انقطاعه عن الدراسة وما كان أكثر هذه الأيام

وليس عجيباً أن تكون هذه الباءة الممتلئة بأسراب البعوض وجيوش البق جنة التلميذ المراهق توفيق أفندى عبد الاله ... فالحجرة على قذارتها لها نافذة تشرف من بعيد على حدائق المنشية الناعمة تحت أسوار القلعة ، وذاك منظر عجب ينبت الريش فى خيال شاب مثل توفيق ، ويجعل له أجنحة فيرفرف فى عوالم الشعر ، ويجعل حياته ضرباً من الأحلام لا يفيق منها إلا على لدغة بعوضة أو عضة ذكر من ذكران البق أو باشق من بواشق البراغيث

وليس هذا المنظر وحده الذي جعل الغرفة جنة لهذا الشاب ، بل هناك شئ آخر ... شئ إذا وجد قلب كيان المرء وملك زمامه ، وسلبه لبه وتفكيره

لقد كانت أسرة فقيرة تعيش فى إحدى حجرات الطابق الثانى من ذاك المنزل ... وكانت الأسرة مكونة من رجل عامل فقير ومن زوجة بائسة ، لها طفلان يافعان ، أما أحدهما فغلام فى السنة الأولى الابتدائية وأما الثانية ففتاة فى السابعة عشرة ، رسم الفقر حول عينيها تهاويل عجيبة من السحر ، كانت تنشر ظلالا من الفتنة فوق خديها ، وألواناً قرمزية فوق شفتيها وكانت ابتسامة واحدة من فمها الدقيق الرقيق تصير ببؤس والديها أنعما ، وتنسيهم ما هم فيه من عناء وضيق

وكانت هذه الابتسامة نفسها بلسما يشفى فؤاد توفيق ، وطلسما يشيع بالنشوة فى كيانه ، فهو لهذا لم يكن يعدل بغرفته القذرة المكظوظة بالحشرات من كل صنف قصراً بأسره ، ولا مدينة من مرمر يشيدها ملك الجن فيزخرفها ويقيم عمادها من فضة وذهب ، ويجرى تحتها الأنهار من خمر ولبن وعسل مصفى ، وينبت فيها من كل زوج بهيج

وأجل الحب وأخطره ما يكون فى هذه السن المبكرة ... فهو حب يغمر القلب ويشك النفس ويؤرق العين ، ويجعل صاحبه طيفاً قلما تصدمه حقيقة الدنيا ، وقلما يعترف بما فيها من نضال ، لأنه لا يفكر دائماً إلا فى ملاكه ، وهو يغنى فيه بقلبه وعينه وسمعه وإدراكه ، ويهبه كل وقته لأنه يعد نفسه كلها قربانا لحبيبه ، وهو ينظر إليه كأنه شئ مقدس علوى ، فهو يحسد ملابسه لأنها تلتصق دائماً بجسده الجميل الممتلئ باللذة ، وهو يحسد الأرض التى يختال فوقها لأنها تقبل قدميه دائماً دائماً ... وهو يحسد الهواء الذى يملأ رئتيه لأنه ينفذ إليهما من أنفه الأقنى الجميل ، ثم يخرج من فمه الحلو المطبوع بالقبل ... وهو يحسد الغرفة التى يعيش فيها لأنها فى نظره أثمن من كنوز سليمان لأنها تضم ثروة من الجمال تعدل ثروته أضعافاً مضاعفة

ثم يشتد في حسده ويغلو غلواً عجيباً حين يحسد أم حبيبه وأباه وأهله الأدنين لأنهم يكلمونه دائماً وهو يكلمهم فيملا آذانهم من سحره ، في حين أنه نادراً ما يستطيع أن يكلمه إلا بقدر ، وإلا في كل فرصة منتزعة من عفو المصادفات

هذا هو الحب الجميل الخطر المهلك ... فهو جميل لأنه ينمو في سن جميلة ... في زهرة الصبا وعمر الأحلام ... عمر الفراغ والخيال المشبوب . الخيال الذي لم تفسده حقيقة الحياة المرة المشوبة بمكر المسئولية

وهو خطر بل مهلك لأنه يوقظ الحيوان الذي يثور ويتدفق في أصلاب الناس منذ آدم ... وهذا الحيوان هو أضرى الحيوانات كلها وأشراها لاسيما إذا استيقظ في هذه السن المبكرة ، وهو في الغالب يستيقظ فيها ، فلم يصرفه المؤدبون والآباء في كياسة ولطف بمختلف الوسائل التي رسمها العلماء لمحاربته أو التسامي به ... فهم يحاربونه بالكبت بالدين والتخويف بجهنم أو التهويل بما يلحق الجسم من تهدم من جرائه ... وهذه طرائق سلبية قد تضر أحياناً وقد لا تجدي إلا قليلا ... ثم هم يتسامون به فيصرفونه إلى الرياضة والفنون والدفاع عن الوطن والمخاطرات من كل لون ... وهذه طرائق إيجابية كثيرة الجدوى في تاطيف حدته ، ولكنه مع ذلك قد يثور بالوسيلتين فيحطم كل شيء ، كما حطم هذه السنوات الثماني من حياة توفيق ، وكما حطم معها أمل الشيخ عبد الاله ، وكما حطم صحة أبنائه بالتجويع والعرى ، وكما ذهب بأمله في شراء حصة أبي طاقية وضمها إلى الدار ، وكما غل يد الرجل فلم يشتر البقرات الثماني التي كان يرجو أن تملأ له منزله سمناً وعسلا ...

هذا هو الحيوان الفتاك الذي يغازله الشعراء فيسمونه حباً ، ثم يردون له الخدود ويقدون القدود ، ويكحلون عيون الآرام بالسحر ، ويمهدون له القلوب لينام فيها مطمئناً مستريحاً ناعم البال

* * *

وذهب توفيق إلى القاهرة ليصل حياته المدرسية وأنف أبيه راغم ... ثم ليصل غرامه بالفتاة الناهد العذراء الريانة

لقد كان توفيق يكره التعليم أشد الكره . . . وكان ينظر إلى الكتب كأنها سموم معبأة في قوارير إذا ذاقها أذاقته المنايا أشكالا وألوانا ... وكان أكثر العلوم بغضاً إليه دروس الجبر ... لقد كان يسميها دروس الألغاز والمعميات .. ولم يكن يدري مافائدة اللوغرتم مثلا . . . وكيف يستعمله في حل مشكلة دودة القطن أو الندوة العسلية التي تصيب اللوز أو عمل الجبن أو استخراج الزبد من اللبن . . . أو ما فائدة الجذر التكعيبي في علاج صدأ القمح

وكان يرى جيوش الشبان المتعلمين تغزو القهوات ودور اللهو ، والسعيد من حصل منهم على عمل يبضعة جنيهات يستر بها حاله ولا تعوض شقاءه الطويل في دور التعليم ، ولا تنهض بالآمال الكبار التي كان يعلقها بمستقبله والداه

لقد كان يرى جيوش المتعلمين المتعطلين يتسكعون هنا ويتسكعون هناك . . . وكان يقرأ في الصحف غزواتهم للوزارات وأخبار اجتماعاتهم وهتافهم بزيد وصياحهم بعمرو وإملاء إراداتهم على أولياء الأمور حين يطالبونهم بخلق الوظائف لهم وتدبير الأعمال التي تناسبهم فكان يضيق ذرعاً بمستقبله ويراه أحلك من ظلام القبور

وكان له صديق أسعد حالاً بالتعليم وأقل كراهية للكتب ، وأكثر تفاؤلا بالمستقبل فجلسا مرة يتجاذبان أطراف الحديث في حديقة المنشية ، وكان

التلاميذ قد أجمعوا على الاضراب ذلك اليوم فلم يذهب توفيق وصديقه إلى المدرسة

— وزارة ظالمة ووزراء لا يهمهم إلا أن يرفلوا فى ثياب السعادة الفضفاضة ... كلما كان لهم قريب أو محسوب خلقوا له الوظيفة خلقاً ، فاذا طالبناهم أن يحلوا أزمتنا لوَوْا أعناقهم وقالوا شباب قُنّع مستهترون ...

— وماذا ترى الوزارة صانعة يا توفيق ؟

— ماذا أراها صانعة؟ ولماذا تقبلنا بمدارسها إذن؟

— تقبلنا بمدارسها لأننا نطلب ذلك

— لكنها ولية الأمر فيجب أن تدبر لنا مستقبلا

— وأى مستقبل تراها مدبرة لنا ؟

— لا تلحق بالوظائف إلا الأكفاء المتخرجين فى مدارسها

— هبها فعلت ذلك فهل تكفى وظائفها جماهير المتخرجين ؟

— لا غرو أنها تكفى !

— أنت تقول هذا وقد أثبت الوقائع أن استيعاب وظائف الحكومة لجيوش المتخرجين عبث بل ضرب من المستحيل

— إذن فلماذا تقبلنا فى مدارسها ؟

— تقبلنا لشدة إلحاحنا فى ذلك .. لتهالك آبائنا على مدارسها. وإذا أردت الحقيقة فآباؤنا هم المخطئون

— آباؤنا مخطئون ؟

— أجل ، وهم الجناة المسئولون عن ضياع مستقبلنا ...

— ماذا تقول يا حليم ؟

— أقول إنهم يلحقوننا بالمدارس وهم لا يدرون ماذا نصنع حين نتخرج فيها ... وإذا سألتهم أجابوك هذا الجواب الضعيف المتهافت : دع الأمر لله فالمستقبل بيديه وهو يعلم الغيب وحده سبحانه!

— وهل المستقبل بيدك أنت ؟

— أنا لا أشك يا صديقى أن مستقبل كل إنسان بيديه وبيدى أبيه !!

— هذا كفر ...

— ليس هذا كفراً كما توحى إليك تربيتنا الفاسدة ... إن مستقبل الناس بأيديهم والمقادير بيد الله ... إسمع يا صديقى توفيق ... إن إقبال الآباء بأبنائهم على مدارس التعليم النظري بهذه الكثرة الهائلة هو توبة من جنون التقليد ... إنهم يندفعون مع التيار دون أن يفكروا فى هول اللجة التى تصعقهم حين يقذفون فيها بفلذات أكبادهم . إنهم يرون ابن فلان من الناس قد حصل على وظيفة بعد شق النفس ، ثم ما هو إلا أن بدا بينهم مختالاً فى بذلته مياساً تحت طربوشه حتى يجن جنونهم ، ويتمنون لأبنائهم مثل مركزه إن لم يكن أسمى من وظيفته ... فيسلكون السبيل نفسها التى سلك ... فترى أبناء النجارين والحدادين والفلاحين والمتالين والنقاشين يذهبون إلى المدارس أفواجاً ، ثم يتخرجون فيها أفواجاً ، ثم يتكدسون بعد ذلك فى القهاوى ودور اللهو ، ولا يستحيون مع ذاك أن يرهقوا ذويهم بمصروفاتهم الباهظة حتى يحين الحين فيجد بعضهم عملاً تافهاً فى ركن مصلحة من المصالح ويبقى الآخرون وهم الأكثرون شذاذاً فى الطرق عيالا على أهليهم .. ما هذا؟. أليس هذا جنوناً يا صديقى؟

— ... ؟ ...

— أليس كان الأليق بأكثر هؤلاء إن لم يكن بهم جميعاً أن يسلكوا سبيل آبائهم ؟

— ... ؟ ...

— لماذا لا تتكلم ؟

— إنك بهذا تريد أن تقصر التعليم على أبناء الأغنياء !

— كلا ... ثما إلى هذا قصدت

— وماذا تقصد إذن ؟

— هنا عيب الحكومة ...

— ألم أقل لك إنها وزارة مقصرة ! ؟

— ليست هذه الوزارة هى المقصرة بالذات ، إذ هي غلطة جميع الوزارات

— وما ذاك إذن ؟

— لو اقتصد الآباء فى إرسال أبنائهم إلى المدارس بعد المرحلة الضرورية منه — التعليم الابتدائى مثلا ، أو الأولى إذا دعت الضرورة — كان واجب الحكومة أن تنتخب من أبناء الفقراء ، بصرف النظر عن مهن آبائهم ، العدد الأكبر من نابغيهم فتعلمهم على نفقتها ، فمن استمر منهم على نبوغه استمرت هى على الانفاق عليه حتى يتم منهاجه ويصبح جندياً ممن يعملون فى الصف الأول من صفوف الخدمة العامة ؛ ومن أهمل منهم ، أو تكشف عن غير ما كان يرجى منه ، انحرفت به الحكومة عن الطريق ، أو انحرط فى وظيفة صغيرة مما يناسبه من الأعمال الصغيرة العامة ... فبمثل هذه السياسة خصوصاً إذا تولتها أيد حازمة ، كنت لا ترى هذه الجيوش من المتعلمين العاطلين ، ثم كنا وفرنا للمهن الحرة فئة من الشباب الصالح يرتفع بها ، ولا يجعلها من الهوان بحيث يحتقرها الأبناء . ومنها يطعمهم الآباء ... إن احتقار المهن الصغيرة قد أخرج محترفيها عن دائرة الشرف ، وهذه هى علة العلل فى أخلاقنا

— وهل تظن أن هذه المهن من الرواج بحيث تكفل الخير للكثيرين ؟

— إنى أثق أن أيا من هذه المهن تضمن للانسان حياة هادئة سعيدة خصوصاً إذا تضافرت الحكومة والأغنياء فى رفع شأنها

— كيف تتضافر الحكومة والأغنياء ؟

— الحكومة عليها واجب عظيم فى ذلك ... ينبغى أن تحمى البلاد من سيل المهاجرين الأجانب الذين يذهبون بثلاثة أرباع الأعمال العامة فتجنب الشبان منافستهم الشديدة ومزاحمتهم غير المشروعة ... إن سبعين فى المائة من خدم القهاوى الكبيرة والفنادق الراقية من الأجانب ... إن سبعين فى المائة إن لم يكن تسعين ، من وظائف الشركات الكبيرة الأجنبية مقصورة على الأجانب

— إن رأس المال أجنبى يا صديقى فهذا حقهم

— كلا . . . إنه إن يكن رأس المال أجنبياً فان الثمرة مصرية بحتة . . . ولا تنس أن رأس المال الأجنبى يبدأ صغيراً ثم لا يلبث أن يتضاعف فى بلادنا ... فلك أن تعده كالبذور الأجنبية نجلبها من الخارج ونزرعها فتنبت محصولا مصرياً

— وماواجب الأغنياء إذن؟ أتعنى أنهم مكلفون بالانفاق على الفقراء ؟

— ما عنيت هذا ، ولا يستطيع أحد أن يكلفهم به

— وماذا عنيت إذن ؟

— عنيت أن عليهم واجباً مقدساً إن لم يقوموا به استحقوا الزراية .. ذلك أنهم يكدسون أموالهم فيما لا يجلب ثروة واسعة فى هذا العصر ... إنهم جميعاً لا هم لهم إلا شراء الضياع واقتناء الدور والقصور ... فأموالهم بذلك معطلة وإن جلبت ثلاثة أو أربعة فى المائة ربحاً لها كل سنة

— وماذا يصنعون يارعاك الله ؟

— لو أن الفنى منهم فكر فى إنشاء مصنع لصلح الحال ... على أننى أفضل أن تتحد كل جماعة منهم فتكون شركة تفتح ناحية من نواحى النشاط البكر المعطلة فى مصر . . . يجب أن تتحرك أموالهم لأن المال وحده هو دم الاقتصاد الذى لا ينفد ، وإن

تكن اليد العاملة والذهن المفكر هما يورث بلازم هذا الدم . . . أقسم لك لو تم هذا لما رأيت متعلماً عاطلا فى مصر

— هذا صحيح يا حليم . . .

* * *

أفاد توفيق من حديث صديقه حليم فائدة جليلة ... لقد رأى جانب العبث من حياة التعليم ... لقد وقر فى ذهنه أن أباه كان على حق حين أراد منعه من الذهاب إلى المدرسة ليتعلم الفلاحة ، وليندمج فى روح الحقل ، وليرث أباه وراثة صحيحة ، وراثة الملك والفن والمهنة .

غير أن شبح الفتاة الناهد — ليلى — تمثل له فخدره وصرف عنه طائف الحقيقة ، وأغرقه فى بحر لجى من هواء المبرح ، وخياله المشبوب .

لقد كان الحيوان الخبيث الذى استيقظ بين كتفيه يعذبه ، ويصور له الفتاة الممتلئة الحسناء تتقلب بين ذراعيه ، وتلصق لحمها الوردى الساخن بلحمه المتأجج ، وفوق فمها الحمرى الفتان فمه المشتعل يقطف القبل ، وفى عينيها الدعجاوين عيناه الجائعتين تسبحان فى دنيا من المفاتن والسحر .

هذا هو حيوان اللذة المدمر ... هذا هو الحيوان الذى يقضى على نزعة الخير فى نفس الانسان ... هذا هو الشيطان المسلط على الروح الانسانية يشوه جمالها ويصرفها عن نهج الهداية ، ويزخرف لها باللذة الأثيمة فتضل وتخزى .

كان يجلس فى نافذة غرفته يغازل ليلى ساعات وساعات حين لا تكون أمها فى غرفتها .

وكان كلما لقيها على السلم أرسل تحية مخنوقة تردها فى حياء وفى خفر ، وهى تعلم ما تضمر جوانحه لها من حب ، وما ينطوى عليه قلبه من هيام

وكان إذا واتته الفرصة فصعدت ليلى تنشر ملابس الأسرة فوق السطح ، تسلل كاللص ثم اختبأ فى ركن حتى تفرغ من عملها فيندفع نحوها فى تأدب وَوَلَه ، ثم يقف صامتاً وملء وجهه الشاحب المرتجف عواطف مكبوتة لا يستطيع أن يعبر عنها إلا بدمعة أو دمعتين . . . فتفهم ليلى . . . ويجزيه بابتسامة رقيقة . . . ثم تهبط مسرعة كالغزالة . . . فيتدحرج تحت قدميها قلبه وأنفاسه !

وصممت مرة تلم الملابس فصمم على أن يغير معها خطته ، وأن يكون هذه المرة أكثر إقداماً وجرأة

لقد انتظرها حتى نزلت بحملها فوقف يحول بينها وبين النزول إلى غرفتها .. ثم أخذا فى حديث خافت هكذا :

— ماذا يا توفيق ؟

— أحبك !

— عيب !

— وكيف يكون الحب عيباً ؟

— هذا لا يليق !

— لا بد أن أعرف !

— تعرف ماذا ؟

— إن كنت تحبينى !

— أرجوك دعنى !

— لا بد أن تتكلمى !

— هذا مستحيل !

— ماذا هو هذا المستحيل ؟

— أمى تحت ... دعنى أرجوك !

— إذن نسجل حبنا بقبلة !

— مستحيل ، مستحيل !

وقبل أن تستطيع الافلات ، انقض على فمها الشهى الجميل فسرق منه قبلة ناضجة ، ثم صرفت كالسهم على السلم ، ودخل هو إلى غرفته

والأرض تميد تحت قدميه ، ونشوة القبلة تسرى كالحيا فى فؤاده ، مرفرفة بأجنحة اللذة ، متأرجحة كالورد ، عليلة كالنسيم ، منداة كأنفاس الصباح !

ما أبدع القبلة الأولى من قبل الحب !!

إنها تفصل من حقيقة الحب بين حيانين ... إنها تظل تدوّى فى ذكرى العاشق كما يدوى الأمل والظفر ... إنها تلمع كالبرق فى ظلمات يأسه ... إنها كالمنارة فى ظلام البحر اللجى

تطرح توفيق فوق سريره يتقلب كالسكران

لقد نسى كل ما قاله حليم !

إنما الحياة هنا ... فى القاهرة ... الحياة الحب والحب الحياة كما يقول شوقى وكما يغنى عبد الوهاب

ليبق توفيق فى غرفته ... لتكن المدرسة حبيبة إلى فؤاده لأنها تبقيه إلى جانب حبيبته ... ما أسراب البعوض وجيوش البق والبراغيث فى قبلة واحدة يطبعها على فم ليلى ؟

لقد نال القبلة الأولى بالعنف ، فماذا يحول بينه وبين القبل التالية ؟ لا شىء ! أليس قد شرب الكأس الأولى ؟

وجلس يرقب صعود ليلى بقلب مضطرب ، وأعصاب ثائرة ... وكان يعرف متى تصعد ، إذا أحس بحركة الغسل فى قاعة حبيبته فيجلس يومه كله يرقب الصاعدين والنازلين ...

وأطل فرأى أمها تخرج وتترك دنيا غرامه بدون رقيب أو عزول .. ففرح واستبشر ، وتأكد أنه سيقع على منية أغلى وأقنى ... لا قبلة تترك فى القلب لوعة وأشجاناً

وفكر فى أن يخاطر وينزل إلى ليلى ليسعد بنظرة منها مؤقتة تشفيه أو تكويه ... وكلاهما عنده سواء ...

لكنه ما كاد يفعل حتى رآها تبرز من غرفتها حاملة حملها ... فأخذ قلبه يخفق بشدة وفى عنف ... وخيل له أنها بطيئة مع أنها فى زعمه أرشق من الظبى وأسرع من الظليم ... ثم هبط يمدو وانقض على حملها فالتقطه من فوق رأسها ... فنظرت إليه وتضاحكت ... وصعد الاثنان

ودخل توفيق إلى غرفته بكل اللابس !!

— هلمى ...

— مستحيل ... مستحيل !

— بل المستحيل أن تصعدى !

— يجب أن أصعد .. إن أمي عائدة الساعة ، فماذا أقول لها ؟

— لن نجلس إلا دقائق

— ليكن بعد أن أفرغ من عملى !

— إذن أصعد فأساعدك !

— كثر الله خيرك ... بل استرح أنت حتى أنزل !

— إذن أوصلك إلى السطح !

وتواثب على السلم ... وتواثبت من خلفه ليلى. ثم وضع حمله ، وأهوى على فمها فطبع عليه القبلة الثانية ... وكانت قبلة طويلة متبادلة ...

وعادت ليلى بعد دقائق كانت أطول من دهر فتلقاها توفيق فى ذراعيه وأجلسها على مقعد متوسط ثم راحا يتناجيان

وكان حديثاً طويلاً شهياً مرصعاً بالقبل ، لم يوقظهما منه إلا انفتاح باب الغرفة السفلى ، فهبطت ليلى مسرعة

ونسى توفيق كتبه ؛ وفرغ لحبه

وصرت الأيام

وبدا الشحوب على وجه توفيق ، وكان قد أفرط فى استجلاب اللذة المصنوعة ، لأن ليلى كانت أحرص على عرضها أشد مما حرص إبليس على

عصيان ربه حينما أمره بالسجود لآدم . لقد رفضت أن تسقط إلى الحضيض الذي أغراها توفيق بالتردى فيه .. لكن الحيوان الدميم كان يعصف به ، ويرغمه على إشباعه ، فكان المسكين يستسلم له بعد نزول ليلى فيباشر العادة السرية مباشرة قتالة تستنزف ماء حياته فلا تكاد تبقى منه شيئاً

وعاد يوماً من المدرسة فوجد غرفة ليلى خاوية

ماذا ؟ !

لقد ذهبت إلى حيث لا يدرى !

وبات ليلة طويلة مؤرقة ... ونزل نصف الليل يجوب الطرقات كالمجنون . ثم عاد مع الفجر فصعد إلى غرفته ، وعاد إلى غرفة ليلى بمصباحه وجانب من فراشه، وابث يتلوى كالمحموم حتى تنفس الصباح.

ولبس ملابسه ، وهرول فى الشوارع يبحث ويتشمم ، ولكن بلا جدوى .

ومضت أيام وأيام .

ثم تسلم يوماً ما خطابين عرف أولهما لأنه من أبيه فأهمله قليلا ؛ وفض الثانى فلم يجد فى رقعته غير هذا السطر :

«وداعاً ياصديقى فقد تزوجت وأنا سعيدة برجلى !»

واضطرب قليلا ... وحاول أن يقرأ خاتم البريد فلم يفلح ...

وفض الخطاب الأول فعاله أن يقرأ من أبيه أنه مريض وأنه فى خطر ، وأن لا بد من وجوده بجانبه فى ساعاته الأخيرة

وأفاق توفيق من حلمه اللذيذ

وصدمته الحقيقة المرة

فعاد ليودع أباه ... وليحمل على عاتقه العبء الثقيل الذى نحى لو كان حمله قبل اليوم ، ليكون له أهلا . . .

دريني خشبة

بنك مصر

أكبر مؤسسة مالية مصرية

تنشىء الصناعات الكبرى

وتؤسس الاستقلال الاقتصادى

عاملوه ... وعاملوا شركاته تكتبوا ... النصر لبلادكم